إلـــى اكـتـشـــاف تـــراثـــنا

الـزراعـة
فى مصـر القديمة

النـــص لـ: كـريسـتيـان لـوبـلان

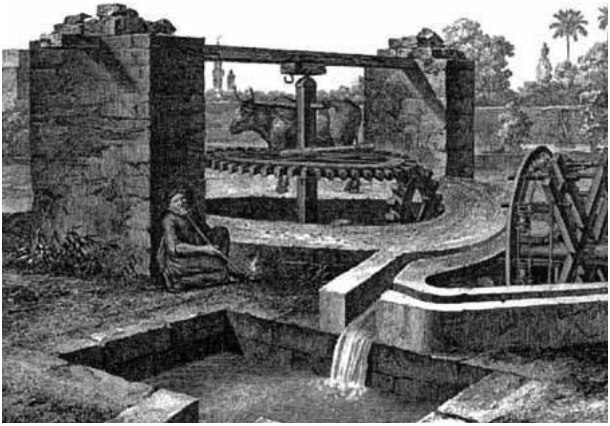

Exemples de norias ou sakiehs dans la campagne égyptienne.
أمثلة للساقية (النوريا) فى الريف المصرى.

إلـــى اكـــتـــشـــاف تـراثـــــنـــا

الزراعـــة
فى مصـــر القـــديمـة

فى بداية الكلام

"مصـر هبة النيل" عبارة نسـمعها كثيراً وتتردد على آذاننا حينما نذكر أهمية نهر النيل الذى لولاه ما كانت مصـر بهذه الجنة الخضـراء، الكثير لا يعرف أنها مقولة للمؤرخ الشهير "هيرودوت".

منذ العصـور الفرعونية، والزراعة تعتبر عماد الحياة الإقتصـادية والإجتماعية فى مصر وكان الفلاح بعمله وشقاه يعتبر بمثابة العمود الفقرى للمجتمع وركيزة إزدهار الدولة المصرية (١).

١

الفلاح ... بين السماء و الأرض

٢

فـى مصـر القديمـة، لم يكـن الفـلاح (٢) يمتلك الأرض الزراعية وكانت ظروفه قاسـية ومتعبة كما جاء فى بردية "تعاليم المهنة"، التى سردت الآتى: عندما يترك أرضـه فى الغروب ويصل إلى منزله يكون فى حالة من التعب الشديد وقد يستمر ذلك الحال منذ ولادته وحتى وفاته.

كان الفلاح يخضـع لحياة صـعبة ذات ضـغوط، راتبـه كان عَينى يتراوح بين قمح، زيت، الشـعير يكفيه بالـكاد للوفاء بإحتياجاته هو وعائلتـه، هكـذا كانت تتمثـل حياته المتواضعة.

٣

و كان الفـلاح يعيشـ فـى بيـت مـن الطـين يشـبه كثـيراً تلـك البيـوت المتواضـعة (٣) التى نراها حتى الآن

على ضفاف النيل فى دلتا مصر، وفى بعض الأحيان كانت تتلخص هذه المنازل فى شكل كوخ بسيط مصنوع من سعف النخل ٤.

وفى ذلك الوقت كان الفلاح البسيط يعانى من أمراض مختلفة كالرمد والتهابات العين نتيجة للظروف الحياتية المحيطة به، وكان هناك أيضاً مرض يعرف بالـ"بلهارسيا" يصيب الفلاح الذى كان يغرس رجليه فى الطين والأرض الزراعية المبللة بالرطوبة.

وبجانب عمله المتعلق بالفلاحة كان له واجبات وطنية، فمثلاً كان يجب عليه المشاركة فى تهيئة البنية التحتية لقريته والمتمثلة فى شق القنوات والترع وبناء السدود لمجابهة فيضان النيل وإستمر تطبيق هذه المشاركة الوطنية عبر سنوات طويلة حتى تم القضاء عليها تماماً عام ١٨٨٩.

وقد جرت العادة أن نرى الفلاح وهو مثقول بدفع ما عليه من ضرائب ودائما ما كانت تذكرنا، تلك المناظر الجدارية فى مقابر قدماء المصريين، والتى نرى من خلالها ممثلين خزانة الملك و هم يقومون على جمع الضرائب وأحياناً بتعنيف الفلاحين وأحياناً أخرى بتهديدهم بالسجن في حالة عدم الدفع ٥.

العمل فى الحقول
زراعة القمح

تنقسم السنة المصرية الى ثلاثة فصول: الأول، يمتد من يوليو حتى سبتمبر ويعرف بالهيروغليفية بـ(آخت) وفيه يفيض النيل على ضفاف مجراه محملاً بالطمى والسباخ حاملاً الخير والرخاء لأهل مصر ٦.

و أثناء هذا الفصل، كان الفلاح يذهب لأداء واجباته الوطنية المفروضة عليه لأنه كان لا يمكنه فعلياً المساس بأرضه وهى تحت مياه الفيضان.

ومع بداية فصل "بيريت" والذى يبدأ فى أكتوبر، كان على الفلاح العودة إلى عمله اليومى والمتمثل فى حرث

أرضه ٧ بعد إنحسار مياه الفيضان داخل مجرى النيل. و ينشغل الفلاح بتقليب الطمى وبعد ذلك رمى الثمرات والبذر هنا وهناك فى منظر بديع يعكس سعادته بنشر البذور التى تنطلق من بين أصابعه وتطير فى الهواء الطلق ٨ لترسى فى بطن الأرض ببركة خالقها.

و من خلف الفلاح، كان هناك مجموعة من الحيوانات الأليفة كالحمار والخروف والخنزير لمساعدته فى دفن البذور داخل الأرض اللينة قبل أن تلتقطها مناقير الطيور وتقضى عليها.

وبعد ذلك تبدأ مرحلة دقيقة ٩ و هى مرحلة بعد البذر و هى التى يقوم فيها الفلاح برى أرضه بصفة دورية على مدار اليوم من واقع قنوات فرعية لتسهيل مجارى المياه هنا وهناك فى أنحاء الأحواض الممتدة، وهنا يجدر بالذكر أن هذه القنوات كانت أيضاً تستلزم إهتمام دقيق من الفلاح لتنظيفها ومتابعة العناية بها، وعندما تطول عيدان القمح وقبل وقت تقليمها، كانت هناك زيارة تفتيشية للتحقق عما إذا كان الفلاح قد جار على أرض جيرانه أثناء عمليات البذر والحرث والرى أم التزم بما خصص له.

وفى فصل "شمو" أى فصل الصيف بلغتنا الحديثة، يأتى وقت الحصاد حاملاً فى طياته الفرحة والسعادة والبهجة ١٠ وذلك بعد فترة طويلة من الشقاء والتعب فأخيراً ... هاهو وقت جنى الثمار!

ومن واقع المناظر الجدارية التى نستطيع تأملها حتى الآن فى مقبرة "مننا"، نستشعر هذه الأجواء المرحة التى تصطحب عملية الحصاد والتى غالباً ما

كان يصطحبها نغمات المزمار العذبة.

١٢

أما زوجة الفلاح وبناته فلهن أيضاً دوراً هاماً فى هذه المرحلة حيث يأتيانه بالطعام والشراب وتتشاركا معه فرحته بجمع سنابل القمح بل وتأخذا بعض منها لتغزل بها أشكال مختلفة من "الحظاظات" كالعروسة ومفتاح الحياة لعلها تجلب لهن الحظ.

١٣

وبعد وضع السنابل فى سلال مصنوعة من الجريد واللوف وتعبئتها وإحكامها ١١ فكانت تنتقل إلى مكان كبير مفتوح لفصل الحبوب عن العود نفسه وكان ذلك يتم بالإستعانة بحوافر الجاموس والحمير فى عملية دهس السنابل ١٢.

وفى مقبرة "نخت" كان هناك منظراً جدارياً رائعاً يظهر الفلاحين أثناء إستخراج الحبوب من السنابل وكذلك إستمتاعهم بنخل القمح فى مناخل خشبية مستديرة ١٣.

المحصول ودفتر الحسابات

١٤

هاهو القمح يشكل أكوام مرصوصة، الواحد بجانب الآخر فى مشهد مهيب يعكس الغنى والرخاء.

وها هم نظار القصر الملكى وفى يديهم المعايير والسطول لحَكْمْ كمية القمح وقياسها بدقة وثم تسجيلها على هيئة أرقام فى دفاتر القصر وأخيراً، تحديد قيمة الضرائب المفروضة على الفلاحين ١٤.

ما هى الأدوات التى كان يستخدمها الفلاح؟

هناك بردية عتيقة تسجل حديث فى غاية الأهمية دار بين مدرس وتلاميذه منذ الاف السنين حيث قال لهم أنه أثناء الفيضان كان الفلاح دائما ما يبدوا وقد طاله البلل والرطوبة ولكنه كان يصب إهتمامه على أدوات عمله التى كانت تتمتع ببساطة شديدة ولعل من أهمها وأكثرها إستخداماً كما ورد فى الجداريات

١٥

الفرعونية التى نراها هنا وهناك فى المقابر والجبانات هو "الفأس"، فقد كان يصنع من الخشب مدعم بالمعادن الصلدة لمضاعفة قوة تحمله وهناك الكثير من تلك النماذج فى المتاحف حول العالم ١٥. وأثناء الحصاد، كان الفلاح يستخدم "المنجل" وكذلك "المذراة" وهى عبارة عن عصاة خشبية ذو ثلاثة أسنان والمستخدمة حتى الآن ضمن أدوات الفلاحة المصرية ١٦.

١٦

و بالتوازى مع هذه الأدوات، كانت هناك مجموعة السلال والأسبته المستخدمة فى تشوين القمح والبذور الأخرى، بجانب حوافر البهائم التى أيضاً كان لها دوراً تخزينياً بعد إعادة تأهيلهم لهذا الغرض ... ومن الزعف والجريد والألياف كانت هناك مقشات من أحجام مختلفة بغرض إحكام أكوام الحبوب فى حالة فرط الحبوب منها.

الرى

إذا نظرت عزيزى القارئ إلى خريطة جمهورية مصر العربية، لوجدت أن حوالى ٩٠٪ من مساحتها مغطى بالرمال وأن نهر النيل، وهو الأطول فى العالم، يشقها ويهبها بمياهه الخير والرغد والحياة. لذا فإن إدارة هذه المياه ووسائل رى الأراضى الزراعية كشق القنوات ١٧ وإدارة ظاهرة فيضان النيل إلى إقامة السدود كان من سالف العصر والأوان مسئولية شديدة الوطأة على كبار مسئولى الدولة، فعلينا أن نعرف أن توزيع المياه على الفلاح كان بميزان محدد، كل له نفس القدر ...

١٧

١٨

١٩

ومنذ عصر الدولة الحديثة أى ١٦٠٠ ق.م عرف الفلاح الشادوف ١٨ وتم إستعماله عبر السنوات والقرون، غير أن وجوده تلاشى فى زمننا هذا ١٩، اما الساقية، فهناك أمثلة رائعة نستطيع أن نتحسسها هنا وهناك فى دلتا وصعيد مصر حتى الآن.

تخزين المحصول

كان هناك نمطان لمخازن الحبوب: مخازن القصر الملكى ومخازن كبار القوم فى الحقيقة، أن نماذج هذه المخازن ليست بغريبة علينا وهناك الكثير منها فى المتاحف والعديد منها مرسومة على جدران المقابر (٢٠)، فأستشفينا أن بعض من هذه المخازن يكون على هيئة مبنى مستدير ذو قبة والبعض الآخر مستطيل ومسطح السقف، وكان لهذه النماذج أنماط مختلفة من السلالم المتنقلة لتفى بأغراض التخزين خاصة فى المستويات المرتفعة.

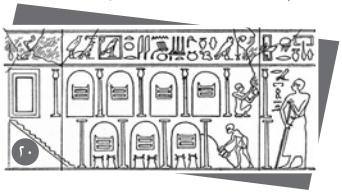
٢٠

بالنسبة، يا عزيزى القارئ، لمخازن القصر الملكى، فكانت غالباً ما تكون داخل أسوار المعبد وكان ما بها من الغلال تستخدم لكفاية حاجة القصر والمعبد وأحياناً، لسد حاجة الشعب فى أوقات المجاعات (٢١).

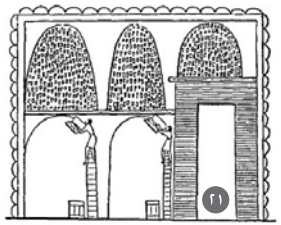
٢١

وفى معبد الرمسيوم، هناك خير مثال (٢١) لهذه المخازن ذات القباب، والمهيئة بمساحتها الممتدة ومداخلها المغلقة بأبواب خشبية لتخزين حجم لا يستهان به من الحبوب ... هذه المخازن كان يحيط بها من جميع جوانبها سور سميك من الطوب اللبن لحمايتها ممن يراوده فكرة السرقة أو التعدى على ممتلكات القصر.

ولا تزال هذه المخازن والموجودة فى الجانب الشمالى لمعبد الرمسيوم تحتفظ بشكلها وهيأتها رغم فقدها لجزء كبير من جدرانها وكذلك أبوابها الخشبية.

٢٢

الزراعة
وعالم الآلهة فى مصر القديمة

أله المصـريون القدماء فيضـان النيل وعرفـوه بإسـم "حابى" وكانوا ينتظرونه بشـوق وولع كل عام فى نفـس الميعاد ويعدون له الأفـراح والإحتفالات، ولعل أهم المظاهـر التـى تعكس السـعادة والبهجـة هى إحتفـالات مدينة طيبـة والمعروفة بـ "أحتفالات أوبت" والتى كانت تتم تحت أعين الإله "آمون ـ رع" رب المدينـة.

ولم يكن الفيضـان دائماً يأتى فى ميعاده حيث سـجل لنا التاريخ على صخرة من الجرانيت بأسوان، تعرف بلوحة المجاعة، ذكرى سنوات مجاعة عصيبة إستمرت لمدة ٧ سنوات.

فـى العقيـدة المصـرية القديمة، كان الإلـه "أوزوريـس" هو إلـه الزراعة وكان الفلاح المصـرى ينسـب له بداية فكرة الفلاحة بمراحلهـا المختلفة، أى منظومة البذر والرى أما "الحصـاد" فكانـت الإلهة "رتنوت" هى المسـئولة عنه وكانت تأخذ شكل ثعبان الكوبرا (٢٣)، ولعل المصرى القديم قد إختار تلك الشكل المرعب لثعبـان الكوبرا لتخويف وإرهـاب من يجرأ الإقتراب من مخازن الغلال بصـفة عامة، وقد نسـبت متون العقيدة المصـرية إبنـاً للإلهه "رتنون" وعرفته بأسـم "نبرى" وكان إله حامياً لسنابل القمح اليانعة قبل حصادها.

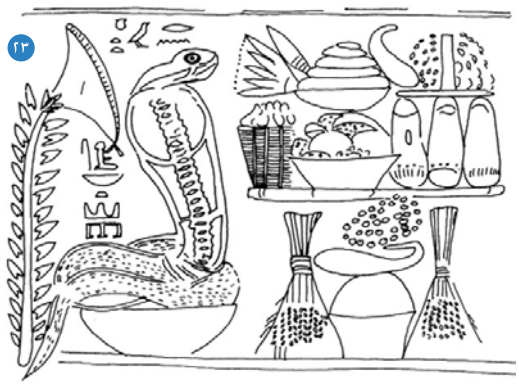

© (٢٠١٧) إعداد النص : كريستيان لوبلان (CNRS)
الترجمة للعربية: چيهان زكي (CNRS)
حقوق التصوير: CEDAE، كريستيان لوبلان، egyptomusee، agropolismuseum، egypt-king، نادين جيلو، وصف مصر، ليشتار.

تم نشر هذا الكتيب الموجه لتلاميذ المدارس بدعم من:
بنك قطر الوطني الأهلي، جمعية الحفاظ على الرامسيوم.
برنتوجراف – أسامة خيرى – جمهورية مصر العربية
يوزع مجاناً